

النموذج الارتقائي ومفهوم المجتمع الجماهيري: المجتمع واسع ومنظم، وكانت هاتان الملاحظتان هما الأساس الذي اعتمد عليه فكر علماء الاجتماع، كما كانت التأمّلات حول طبيعة النظام الاجتماعي موضوع كتابات فلسفية منذ بداية تسجيل الخبرة الإنسانية. عادة ما يرجع الفضل إلى "أوجست كونت في تطبيق الأسلوب العملي في محال دراسة المجتمع، فقد أدخل مفهوم المجتمع ككائن عضوي في كتاباته الكثيرة، وقد استخدم هذا المفهوم رواد علم الاجتماع من بعده. وبعبارة بسيطة، يمكن النظر إلى المجتمع على أنه نموذج خاص من الكائنات، وبالتحديد كائن اجتماعي. وأن الكل شيء أكبر من مجرد مجموع الأجزاء التي يتكون منها، مع الاعتراف بأنه يختلف بشكل واضح عن الكائنات الحية الأخرى. وذهب "كونت" إلى أن المجتمع المتطور هو الذي يعتمد على التخصص في أداء الوظائف المختلفة، ومع ذلك رأى كونت أن هناك خطراً أيضاً في التخصص الزائد عن الحد، فهو من الناحية الأخرى يميل إلى إطفاء أو تقييد ما نسميه بالروح الكلية أو الروح العامة. واستمر "كونت" في مناقشة النتائج المحتملة للتوسع الزائد عن الحد في تقسيم العمل. كلما تعاظم النقص في فهمهم للآخرين، وعلى ذلك، فإن المبدأ الوحيد الذي يمكن للمجتمع عن طريقه أن يتطور ويتسع (مبدأ التخصص)، سوف يهدد بتفكيك المجتمع إلى عدد كبير من الجماعات التي ليس لها صلة ببعضها البعض، وفقاً لهذا النموذج، وفي نفس الوقت، يوجد احتمال بأن يؤدي التطور الزائد عن الحد إلى الاختلال والتقهقر نتيجة لتمزق الأساس الذي يقوم عليه الاتصال الفعال بين أجزاء المجتمع. لقد شكلت الأفكار حول الطبيعة العضوية للمجتمع ونتائجها جزءاً بسيطاً فقط من أعمال كونت"، تابع المفهوم العضوي بنشاط أكبر ويشكل أكثر عمقاً. وكانت نظرية المجتمع عند سينسر نظرية عضوية خالصة، فبعد أن غرف المجتمع على أنه نظام عامل، ناقش النظام الاجتماعي بقدر من التعمق فيما يختص بتطوره وتركيباته ووظائفه وأنظمة أعضائه، بحيث توسان إلى وضع مقارنة دقيقة بين المجتمع والكائن الحي، وقد مثل تقسيم العمل جزءاً هاماً في هذا التحليل باعتباره العنصر الموحد الأساسي الذي يحفظ المجتمع كوحدة واحدة. وفي عام 1881 ظهرت في ألمانيا سباعة أخرى هامة لنظرية المجتمع، حيث توصل فريدياند تونيز" إلى تحليل اجتماعي نظري تحت مسمى "جيمنشافت" وفي هذا طرح توليز نمونجين متعارضين من التنظيمات الاجتماعية: أحدها "جيمنشافت" يعبر عن المجتمع التقليدي في فترة ما قبل التصنيع، وقد ركز تونيز" في تحليله لطبيعة المجتمع على القياس العضوي أو النتائج المحتملة للتخصص بدرجة أقل من أوجست كونت، 1 - مجتمع جيمنشافت: (التقليدي): وهو عبارة عن تنظيم يتميز بترابط أفرادها بدرجة كبرة عن طريق التقاليد، أو بسبب عنصر آخر من عناصر تماسك المجتمع. إن مثل هذا التنظيم الاجتماعي يضع الفرد داخل حلقة من الأنظمة شديدة القوة من التحكم الاجتماعي غير الرسمي، ويتضمن إحساس متبادل بالارتباط يجمع الجنس البشري معاً كأعضاء في كل واحد. هذا الكل الواحد قد يكون أسرة أو عشيرة أو قرية أو نظاماً دينياً أو حتى مجتمعاً بالكامل، يوجد لديه ركيزة من أجل وحدته المشتركة. 2 - مجتمع جيزلشافت (المتطور): والشرط الأساسي للمجتمع المتطور "جيزلشافت" هو "العقد"، والعقد بمعناه الواسع هو علاقة اجتماعية تطوعية يتم الاتفاق الرشيد عليها، فإن العلاقة الاجتماعية في الجيمنشافت (المجتمع التقليدي) هي علاقة غير رسمية. والأسواق العالمية والاتحادات الرسمية الكبيرة، والتقسيم الواسع للعمل، وفي الحقيقة فإن الرباط الأقدم في المجتمع التقليدي الذي يعتمد على الإحساس المتبادل بالارتباط يتم استبداله في المجتمع المتطور بالعلاقات التعاقدية في جميع المؤسسات الكبيرة، وأحياناً داخل الأسرة أيضاً. كذلك يتميز المجتمع المتطور بأن كل فرد فيه قائم بنفسه ومنعزل، وهو نظام يعتمد على العلاقات التنافسية، ويتعلموا في نفس الوقت كيفية الحذر من الآخرين. وفي عام 1893 نشر "إميل دوركهايم" كتابه "تقسيم العمل في المجتمع" وفي هذا الكتاب استطاع أن يضيف مفاهيم جديدة إلى تلك التي أشرنا إليها في كتابات كونت، وسينسر، لا يتصرف الناس بطريقة متشابهة فحسب، ويفرق دوركهايم بين ما أسماه "الترابط الآلي والترابط العضوي" ويرى أن الترابط الآلي يعتمد على تجانس الأعضاء Homogeneity، بينما الترابط العضوي الساسه اختلاف الأعضاء Heterogeneity، والواقع أنه في المجتمع الذي يعتمد على تقسيم العمل بشكل متطور جداً، يعتمد كل الأفراد الذين يؤدون أعمالاً متخصصة على الآخرين الذين ينسقون أنشطتهم معهم. ويواصل دوركهايم إيضاح أن نمو تقسيم العمل يزيد اعتماد كل شخص متخصص على الآخرين، بل على العكس فإن كل فرد يكتسب بشكل مطرد أسلوبه الخاص في الفكر والسلوك، ولا يخضع تماماً للوحدة المشتركة الشائعة. ومن ثم فإن التقسيم الكبير بشكل مفرط للعمل، هو نفسه يحتوي على بذور الشقاق الاجتماعي إذا ما تجاوز ذلك نقطة معينة، وقد أطلق دوركهايم على هذه الحالة من عدم الانسجام إسم "الشذوذ" Anomie وهذا الشذوذ هو أحد أمراض الكائن الاجتماعي، وهو يحدث عندما يصل تقسيم العمل إلى النقطة التي يعجز عن الأفراد عن الارتباط مع غيرهم ارتباطاً فعالاً. وخلاصة ما سبق، ويفقد هؤلاء الأفراد القدرة على التكيف مع المجتمع، ويدفعون بأنفسهم إلى الشعور بأنهم

يشاركون في هذا الإحساس مع الآخرين. وأخيراً يصبح هؤلاء الأفراد مجموعة من الأفراد المنعزلين نفسياً وهم يتعاملون مع بعضهم البعض، ويرتبطون معاً عن طريق الروابط التعاقدية بصفة أساسية. مع بداية القرن العشرين، كانت صورة المجتمع الجديدة هي أنه يتغير من نظام اجتماعي تقليدي مستقر يرتبط فيه الناس ارتباطاً وثيقاً، إلى مجتمع يتميز بتعقيد أكبر حيث ينعزل فيه الأفراد اجتماعياً عن بعضهم البعض، أن العالم الغربي يشهد زيادة في حجم التمايز والفردية، وانخفاضاً في الدرجة التي يستطيع المجتمع السيطرة فيها بشكل فعال على أفرادها من خلال الوسائل غير الرسمية، وتحولاً متزايداً للفرد عن التكيف القوي مع المجتمع ككل، وزيادة العلاقات الجزئية والاجتماعية التعاقدية، وكان يقال إن هذه التحولات الاجتماعية العامة تؤدي إلى ظهور المجتمع الجماهيري Mass Society ، ففي العالم مجتمعات ضخمة مثل الهند ولكنها لا تزال تقليدية في تنظيمها، في حين أن المجتمع الجماهيري يشير إلى العلاقة القائمة بين الأفراد والنظام الاجتماعي المتعلق به، 1 - يتسم الأفراد في المجتمع الجماهيري بالعزلة النفسية عن الآخرين. 3 - يتحرر الأفراد نسبياً من الالتزامات الاجتماعية العامة. وتشير كلمة "جماهير" Mass إلى مجموعة كبيرة من الناس تأتي من جميع مجالات الحياة ومن مختلف الطبقات الاجتماعية، ويواجه أفراد الجمهور عادة قضايا مثيرة للاهتمام، وكيان غير متماسك، أو طقوس، أو قواعد، وليس لها بناء للأدوار التي تحدد من يشغلونها، وليس لها قيادة، وسلوك الجماهير سلوك تلقائي لأنه لا يقوم على أساس قواعد وتوقعات موضوعية سلفاً. ولأن أفراد الجمهور لا يتعاملون مع بعضهم، ويعمل هؤلاء الأفراد على إشباع احتياجاتهم الخاصة كأفراد، وإذا حدث أن تم تنظيم السلوك الفردي في شكل حركة اجتماعية أو سياسية، فإن ذلك السلوك لا يصبح جماهيرياً، ولكن يصبح ذا طبيعة اجتماعية. وقد ازداد حجم السلوك الجماهيري وأهميته في ظروف الحياة الحضرية والصناعية الحديثة، هذه الظروف جعلت إنسان العصر الحديث في المجتمعات الجماهيرية يشعر بالوحدة والضيق والقلق، وكأدوات تعاونه على التخلص من مشاعر التوتر والقلق التي يشعر بها باستمرار. لهذا فقد ادعى البعض أن وسائل الإعلام تحولت في العصر الحديث إلى مخضر أو مسكن الجماهير، الأمريكي زحام - كل فرد فيه وحيد". (جبهان رشتي 1978 : 56 - 58) وكتلخيص لما سبق أوجز اليونارد بروم "وفيليب سيلزنريك فكرة المجتمع الجماهيري بعد عرضهما للنظام الاجتماعي في المجتمعات الغربية في الفقرة التالية: يتكون المجتمع الحديث من الجماهير، وتقسيم العمل، والتمايز بين الأفراد، والمعيشة في الحضرة والتخصص وقد كانت الحرب العالمية الأولى بحق أول أعمال الاتصال الشامل الذي لعبت فيه الشعوب أدواراً نشطة ومنسقة في الجهود المبذولة ضد أعدائها، وكان يتعين أداء العمل في المصانع بحزم لايفتر، فقد نشأت حالة عاجلة وحاسمة جداً إلى إيجاد روابط أقوى بين الفرد والمجتمع، ولذا أصبح من الضروري تحريك الأحاسيس ومشاعر الولاء لكي يغرسوا في نفوس المواطنين البغض والخوف من العدو، ولكي تبقى الروح المعنوية مرتفعة رغم الحرمان، ولكي يركزوا طاقاتهم للإسهام بشكل فعال لصالح الأمة. ولكي أوضح باختصار الأسلوب الذي وجدته المتخصصون فعلاً في الدعاية تلاحظ أن نظرية الدعاية كانت بسيطة لياً، وكانت تتمشى مع عمورة المجتمع الساهيري الذي كان ميراً فكرياً عن القرن التاسع عشر، وأن كل فرد يمكن أن يدركها بنفس الطريقة العامة، وأنه من الممكن أن تحدث استجابة Response متماثلة تقريباً من كل الأفراد. ظهر اعتقاد عام بالقدرة البالغة لوسائل الاتصال الجماهيرية، والفكرة الأساسية التي اعتمد عليها هذا الاعتقاد هي أن الرسائل الإعلامية تصل إلى جميع أفراد المجتمع بطريقة متشابهة، ويذهب "جون بينتر" (400 - 339 : 1986 . وتقوم هذه النظرية على افتراضين أساسيين هما: 1 - أن الناس يستقبلون الرسائل الاتصالية بشكل مباشر وليس من خلال وسائل أخرى. 2 - أن رد الفعل حيال رسائل الاتصال يتم بشكل فردي، ولا يضع في الاعتبار التأثير المحتمل لأشخاص آخرين. حيث تكون الرسائل الاتصالية بمثابة "رصاص سحري يصل فوراً لي عقول المستقبلين، وكانتريل" و"البورت" حول التأثير السيكولوجي الراديو، وكانتريل وجوديت وهيرزوج" حول تأثيرات الراديو المحتملة على المستمعين. لقد كان يقال إن المؤثرات القوية كانت تقدم بشكل متشابه لأفراد الجماهير، وكانت هذه المؤثرات تمس الدوافع الداخلية والعواطف، كان كل شخص يستجيب بشكل متشابه تقريباً وكانت النتيجة هي أنه يمكن تغيير آراء أفراد الجماهير والتأثير عليهم من حقب المسؤولين عن وسائل الإعلام، هكذا كانت نظرية "الآثار الموحدة أو"الطلقة السحرية تعتمد تماماً على النظريات العامة في مجال علم الاجتماع وعلم النفس وفقاً لتطورها حتى ذلك الوقت. تدعمت بشدة لس علم النفس وعلم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية،